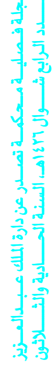
موقف القبائل البدوية من قافلة الحج الشامي والخط الحديدي الحجازي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

د. إبراهيم فاعور الشرعة
قسم التاريخ - كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية - الجامعة الأردنية

موقف القبائل البدوية من قافلة الحج في القرن التاسع عشر:

شهدت الفترة الواقعة ما بين القرن السادس عشر وأواسط القرن الثامن عشر صراعاً مريراً بين القبائل البدوية (الشامية والحجازية) والدولة العثمانية، تمثل ذلك الصراع في حالات كثيرة حول حماية قافلة الحج الشامي من اعتداءات هذه القبائل، حيث تكررت تلك الاعتداءات على القافلة مرات عدة؛ بسبب الخلاف ما بين أمراء القافلة وزعماء القبائل فيما يتعلق بالأموال "الصّرة"[١] التي كانت

(١) الصرة أو الصر: عبارة عن المال المدفوع من دار الخلافة لإعانة الحرمين الشريفين وسكانهما وتزويدهما بما يحتاجون إليه من شموع وزيت وقناديل. وكان مقدار ما يتقاضاه أمين الصرة ستة آلاف ليرة عثمانية. أما وقف السلطان سليم الأول فقد جعل فيه (٦٠٠) قرش لأمين الصرة فقط. ويخرج مال الصرة من نظارة الأوقاف العثمانية، حيث يوزع على القبائل البدوية مقابل حماية القافلة، وكانت الحكومة العثمانية تنفق في هذا المجال (١٠٠,٠٠٠) ليرة ذهبية في كل عام، ينفق القسم الأكبر على البدو كأجور للجمال وهدايا لشيوخ القبائل البدوية، خاصة تلك التي كانت تشكل خطرا على الحجاج، مثل: بني صخر وحرب. انظر "في رحلات الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج - رحلة السنوسي التونسي"، مجلة العرب، ج ٣-٤، السنة ١٣، ١٩٧٨م، ص ٢٨٤-٢٨٥؛ علي الشنوقي: مكة المكرمة والكعبة المشرفة في كتب الرحالة المسلمين من سنة ٩٢٣هـ إلى سنة ١٣١٨هـ (١٥١٧-١٩٠٠م)، المؤسسة الوطنية - بيت الحكمة، تونس، ١٩٨٩م، ص ٢٧.
Abdul -Karim Rafeq: The Province of Damascus 1723-1783, Khayats, Beirut, 1966.





تدفع للبدو من السلطات العثمانية، وحرمان البدو من نقل المؤن وتقديم الحماية وبعض الخدمات للحجاج في المنطقة الواقعة ما بين دمشق والأماكن المقدسة(٢).

ولكن الأمور تغيرت ما بين الدولة العثمانية والقبائل البدوية في الحقب اللاحقة، فابتداءً من القرن التاسع عشر خفّت اعتداءات القبائل على القافلة؛ إذ زاد اهتمام الدولة العثمانية بالقافلة؛ فقلت هجمات البدو على الحجاج، نتيجة لسياسة الدولة التي قامت على كسب ودّ القبائل والاستفادة منهم في نقل الحجاج، وبناءً على ذلك توطدت العلاقة بين الطرفين، بعد أن كانت علاقة عدائية في أغلب الأوقات؛ فمن خلال ما أورده الرحالة الأجنبي لورنس أوليفانت (Laurence Olyphant) عن قبيلة بني صخر(٣)، وتبنيها مسألة تقديم الجمال إلى والي دمشق

(٢) انظر، إبراهيم الشرعة: "موقف القبائل البدوية من قافلة الحج الشامي في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين"، مجلة دراسات "الجامعة الأردنية"، م ٢٩، ع ٢، حزيران ٢٠٠٢م، ص ٣١٩-٣٣٦.

(٣) قبيلة بني صخر: من القبائل البدوية الكبيرة التي نزحت إلى منطقة الكرك في أوائل القرن السادس عشر، وتنازعت مع القبائل البدوية التي كانت تحل في أراضيها. ثم تحولت إلى البلقاء وتنازعت مع قبائلها؛ فاستقرت أخيرا في بادية الأردن في المناطق التي كانت تسيطر على طريق الحج الشامي. وتعتمد بصورة كبيرة على الإبل، بلغ مجموع عائلاتها أكثر من ألف عائلة في بداية القرن التاسع عشر، وتقضي معظم فترة الصيف في البلقاء، وبعض العشائر يذهب إلى منطقة شرق إربد أو إلى جنوب حوران، وفي الشتاء ينتقلون إلى الشرق أو الجنوب الشرقي إلى وادي السرحان. لم يعتمد بنو صخر على تربية الإبل فقط، بل إن قافلة الحج الشامي، التي تمر بمحاذاة الحدود الشرقية للبلقاء، كانت تمثل المصدر الأكثر أهمية بالنسبة لهم، حيث كانوا يزودون القافلة بالجمال، ويتلقون نقودا من السلطات العثمانية مقابل حماية القافلة والسماح لها بالمرور بسلام، وكانوا يقومون بمهاجمة القافلة عندما يمتنع العثمانيون عن دفع الصرة. انظر:

Norman. N Lewis: Nomads and Settlers in Syria and Jordan. 1800-1980, Cambridge University Press, London, 1987, P. 124;

جبرائيل سليمان جبور: البداوة والبادية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٨م، ص٢٢٥-٢٢٦.

لنقل الحجاج مقابل أجرة معينة[٤]، يتضح لنا أن الدولة بدأت تهادن القبائل البدوية التي لها تماس مع طريق الحج كبني صخر مثلاً.

إن سياسة الدولة العثمانية في التعامل مع القبائل البدوية أملتها نتائج حادثة عام ١٧٥٧-١٧٥٨م (١١٧١هـ) الشهيرة[٥]؛ لذلك كلفت الدولة بعض القبائل مهمة نقل الحجاج والمؤن، ففي عام ١٨٠٤م (١٢١٩هـ) بعث والي دمشق وقائد (سر عسكر) الجيش فيها أمير الحج إبراهيم باشا إلى قائمقام القدس حوالة مالية بقيمة (٣٢,٠٠٠) قرش، وأن يتم الإسراع لتسليمها إلى شيخ بني صخر عواد الفايز "مفخر المشايخ الموقرين"، مقابل أن يتعهد بنقل (١,٠٠٠) حمل شعير إلى قلعة معان[٦]، في موعد خروج القافلة من دمشق[٧].

(4) Laurence Oliphant: The Land of Gilead, William Blackwood and Sons, London, 1891, PP. 121-122.

(٥) هاجم قعدان الفايز شيخ بني صخر القافلة في عام ١٧٥٧م (١١٧٠هـ)، في المنطقة الواقعة ما بين تبوك وذات حج، حيث قتل معظم رجالها ونهب أموال الحجاج، كما نهب الجردة أيضاً، وكانت هذه الحادثة بمثابة نقطة تحول بالنسبة للدولة العثمانية واهتمامها بالقافلة. للمزيد عن هذه الحادثة. انظر: الشرعة، موقف القبائل البدوية من قافلة الحج الشامي، ص ٣٣٦-٣٣٨.

(٦) معان: من منازل قافلة الحج الشامي، فيها قرية وقلعة، يتم فيها البيع والشراء بين أهل معان والحجاج؛ فيتبادلون البضائع، وعلف الدواب، وبعض أنواع الفاكهة والمأكولات. وفيها واد يسمى وادي "المسموحة"، فيه ينابيع صغيرة عدة، كما يوجد في معان آبار ماء كبيرة تقع بينها بركة ماء. وقال عبدالغني بن إسماعيل النابلسي في معان بيتين من الشعر:

في طريق الحجاز من نحو شام   قلعة واسمها الشهير معان
كل من جاءها على قصد صبح   فهو من مالك الملوك معان

وهي إحدى المدن الأردنية تقع جنوب العاصمة عمان، وتبعد حوالي ٣٠٠ كم تقريبا. انظر: عبدالغني بن إسماعيل النابلسي (ت١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م): الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، تحقيق: أحمد عبدالمجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٤٨٥؛ مرتضى بن علي بن علوان (ت١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م): منازل الحج، مخطوط رقم (١١٩٤، ١٣٧٠)، مركز الوثائق والمخطوطات – الجامعة الأردنية، ص ١٠٤ب، ٢٧٧أ؛ عبدالقادر بن محمد الأنصاري الجزيري: درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ص٤٥٥.

(٧) سجلات محكمة القدس الشرعية، سجل رقم (٢٨٥)، (٩ شعبان ١٢١٩هـ/ ١٢ نوفمبر ١٨٠٤م)، ص ١٠٤- ١٠٥.



ومما يؤكد تطور العلاقة بين الدولة العثمانية والقبائل البدوية في المنطقة، خاصة قبيلة بني صخر، ما حدث من تعاون بين الطرفين للتصدي لقوات الإمام سعود بن عبدالعزيز - رحمه الله - التي توجهت في عام ١٨٠٩م (١٢٢٥هـ) نحو الشام، فقدّم كل من: الشيخ سعد القعدان الفايز والشيخ فهيد - وكلاهما من زعماء بني صخر - المساعدة لقوات والي دمشق، وأرسلا مجموعة من المحاربين إلى طبريا، انضمت إلى القوات المرسلة من قبل والي عكا سليمان باشا العادل؛ إذ كان لهذا التعاون أثر في تراجع قوات الإمام سعود(٨).

وتحسنت علاقة الدولة مع قبيلة عنزة أيضاً(٩)، التي كانت تعتمد عليها في تقديم آلاف الجمال للحجاج، مقابل أجور معينة وهبات لبعض شيوخها، بالإضافة إلى ما كان يقدّمه والي دمشق من أموال لهذه القبيلة في بعض مواسم الحج التي يكون مردودها ضعيفاً، كتعويض نتيجة لخسائرها الاقتصادية(١٠).

ولحظ بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا المنطقة، مثل: بيركهاردت (Burckhardt)، أن بعض العشائر البدوية، وبالذات التي كانت تستقر في جنوب منطقة شرقي الأردن، كانت تسهم بنقل الحجاج وتقديم المؤن، كاللياثنة في وادي موسى، الذين كانوا يحملون المؤن التابعة للقافلة عند وصول الحجاج إلى معان باتجاه الأماكن المقدسة، وبعض هذه العشائر؛ كالعلاوين، والعمران، والحيوات القاطنة بالقرب من العقبة، كانت تفرض "الأتاوات" على الحجاج بصورة دائمة؛ بسبب

(8) Raouf Sa'd Abu jaber: Pioneers Over Jordan, the Frontier of Settlement in Trans- Jordan's, 1850-1914, Tauris, London, 1989, P. 28.

(٩) قبيلة عنزة: تتكون عنزة من ولد علي، والحسنة، والرولة، والبشر والعمارات، وقدر عددهم في شمال الجزيرة العربية في بداية القرن التاسع عشر ما بين (٣٠٠-٣٥٠) ألف نسمة. انظر بوركهارت: البدو والوهابية، م١، ترجمة: محمد الأسيوطي، دار سويدان، بيروت، ١٩٩٥م، ص٢-٤.

(١٠) جون لويس بيركهارت: رحلات بيركهارت في سوريا الجنوبية، ج٢، ترجمة أنور عرفات، عمان، ١٩٦٩م، ص ٤٧.

مرور القافلة عبر مناطقهم، ولكن في بعض الأحيان كان يتم سلب الحجاج من قبل هذه العشائر[١١]، وبخاصة عندما تتدهور علاقتها مع الدولة العثمانية، ولا تحصل على الصرة السلطانية.

وهناك عشائر كالعمران (آل عمران)، الذين يرتبطون مع الحويطات بحلف، كانت تشكل مصدر إزعاج للحجاج عند مرورهم بأراضيها؛ ففي عام ١٨١٥م (١٢٣٠هـ)، هاجم العمران القافلة، ونهبوا سراياها المتقدمة أثناء مرورها في منطقتهم عندما كانت القافلة في طريقها من المدينة المنورة إلى دمشق[١٢].

ورغم سياسة المسؤولين العثمانيين في التعامل مع القبائل البدوية، واستمالتها، وكسب ودها إلا أن بعض القبائل بقيت مصدر قلق للدولة العثمانية، ولهذا كان أمير الحج يضطر إلى دفع بعض المبالغ، خاصة عند مرور القافلة بقرية الجديدة القريبة من منطقة الصفراء، حيث المقر الرئيس لقبيلة حرب؛ إذ كان الحجاج يدفعون لهذه القبيلة أتاوات مقابل دفع شرهم والسماح لهم بالمرور دون حدوث أي اعتداء على أرواحهم وأموالهم[١٣].

ويبدو أن عادة أخذ الأموال من الحجاج غدت شبه دائمة، ففي تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨١٣م (ذو القعدة عام ١٢٢٨هـ)، طالبت قبيلة حرب أمير القافلة سليمان باشا بدفع مستحقاتها من الصرة السلطانية عن الفترة ما بين ١٨٠٣-١٨١٣م (١٢١٨-١٢٢٨هـ)، حيث توقفت خلالها قافلة الحج الشامي، بسبب سيطرة قوات آل سعود على الطريق المؤدي إلى الأماكن المقدسة

يبدو أن عادة أخذ الأموال من الحجاج غدت شبه دائمة

(١١) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٣٤، ١٤٧، ١٧١.

(١٢) بوركهارت: البدو والوهابية، ترجمة محمد الأسيوطي، دار سويدان، بيروت، ١٩٩٥م، م١، ص١١؛ م٢، ص١٦١-١٦٧.

(١٣) جيرالد دي غوري: حكام مكة، ترجمة: محمد شهاب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٢٣٣.



هناك وضبط الأمن فيه ومنع الاعتداءات، وكان المرور آنذاك عن طريق السويس إلى جدة فمكة، ولبى سليمان باشا طلب القبيلة، فسار بالقافلة دون حدوث أية عقبات[١٤].

وكانت قبيلة عنزة هي الأخرى تحصل على الأموال من العثمانيين لقاء نقل الحجاج وتقديم الجمال لهم، فمثلاً كانت الحسنة إحدى عشائر عنزة تتلقى صرة سنوية، تقدر بـ (١٥,٠٠٠) درهم؛ أي: حوالي ألف جنيه، حيث كان يتم تقسيم هذه الأموال بين بعض أفرادها.

كما أن عشيرة ولد علي، التي كانت تقضي فصل الشتاء بالقرب من طريق الحج من حوران حتى قلعة الزرقاء، تتقاضى المبلغ نفسه تقريباً من العثمانيين. وقد قدّر بيركهارت مقدار الصّرة، الذي يدفع لعنزة بمبلغ تراوح ما بين (٥٠-٦٠) ألف جنيه[١٥].

وعندما خضعت بلاد الشام لحكم محمد علي باشا (الحكم المصري) ١٨٣١-١٨٤٠م (١٢٤٦-١٢٥٦هـ)، اهتم ابنه إبراهيم باشا بشؤون قافلة الحج؛ فأصلح القلاع، وأحواض المياه، والآبار الموجودة في طريق الحج، التي كانت خربة، ومن أبرز القلاع التي أصلحها إبراهيم باشا في منطقة شرقي الأردن؛ الرمثة "الرمثا"، وعين الزرقاء، والبلقاء، والقطرانة، والحسا، وظهر عنيزة[١٦]، ومعان[١٧]، والعقبة، والمدورة؛ لذلك فقد سيطرت السلطات المصرية في بلاد

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

(١٥) بوركهارت: البدو والوهابية، م١، ص ٧٨؛ م٢، ص١٦٤.

(١٦) عنيزة: أرض سوداء وفيها خان قديم، وتقع في الطريق على بعد عشر ساعات من قلعة الحسا، ليس في هذا المنزل ماء، لكنه محط الرحال للراحة، وجوها شديد البرودة. ابن علوان: منازل الحج، ص١٠٤ب، ٢٧٧أ؛ ابن كبريت: رحلة الشتاء والصيف، ص ٢٣٢؛ حلمي: المحمل، ص ٣٤.

(١٧) محمد عدنان البخيت: "معان وجوارها - استعراض تاريخي"، مجلة دراسات تاريخية، ع ١١، ١٩٨٣م، ص٥٦.

الشام على أهم مراكز القافلة الموجودة في شرقي الأردن سيطرة كاملة[١٨].

ولكن رغم ذلك فقد كان المسؤولون المصريون في دمشق حريصين على سلامة القافلة، لتعزيز وجودهم في بلاد الشام؛ لذلك أصدر محمد علي باشا فرماناً في أوائل جمادى الأولى عام ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م تضمن تجهيز العساكر اللازمة للمحافظة على حجاج بر الشام، "ودفع تعديات العربان، واعتداءاتهم عليهم وعلى أمتعتهم"[١٩].

وسعى إبراهيم باشا إلى تحقيق ما تضمنه فرمان والده السابق، من توفير الأمن للقافلة وحمايتها، تجنباً للمخاطر التي كانت تعترض الحجاج قبل سيطرة المصريين على بلاد الشام؛ لذلك فقد حرم إبراهيم باشا بعض القبائل والعشائر البدوية من الصرّة، مثل: بني صخر، وعنزة، وأولاد علي، والحسنة، محاولة منه تهديد هذه القبائل وتحذيرها من مسألة الاعتداء على الحجاج، وبالتالي اكتفاء شرها. ولكنه عاد وقدّم إعانات مالية إلى هذه القبائل، بعد قطع الصرّة عنها، لتقديم بعض الخدمات للحجاج؛ لذلك خصص مبالغ معينة لكل شيخ قبيلة، بلغ مجموعها كاملةً (٩٤,٠٠٠) قرش. إضافة إلى ذلك فقد أبقت الحكومة المصرية على المرتبات الخاصة بالقلاع، ومتطلبات السفر من: الشعير، وقرب الماء، والشموع؛ بالإضافة إلى تسيير قوة عسكرية مسلحة لمرافقة القافلة، خوفاً من اعتداء البدو على الحجاج[٢٠].

(١٨) عبدالحميد أبو صيني: شرقي الأردن في ظل الحكم المصري ١٨٣٤-١٨٤١م، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ - جامعة اليرموك، ١٩٩٥م، ص ٨٩-٩٠.

(١٩) أمين سامي باشا: تقويم النيل، ج ٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٨م، ص ٤١٥.

(٢٠) أبو صيني: شرقي الأردن في ظل الحكم المصري، ص ٨٧-٨٩.



وعـاد خطر البـدو يظهـر من جـديد، بعـد خـروج المصـريـين من المنطقـة، حيث تمرد الشـيخ ابن رومي أحـد شيـوخ قبـيلة حـرب على الشريف محمد بن عـون أمير مكة المكرمة في عام ١٨٤٤م (١٢٦٠هـ)؛ بسـبب رفض السلطات العـثمـانيـة دفع الإعـانة الماليـة له، التي كـان يأخذها مقابل عدم اعتدائهم على القافلة أثناء مرورها من منطقتهم، واسـتطاعت القـوات العـثمـانيـة هناك القـضـاء على تمرد ابن رومي؛ وذلك بتـدبيـر خدعـة له ولرجـاله مـن قبل الشـريف مـحمـد بن عـون، تمثلت بأن يقـوم ابن رومي بحماية مبنى قلعة رابغ ومستودع الذخيرة الملحق بها، مقـابل تقـديم الإعـانات الماليـة التي كـان يطالـب بهـا، وبعـد أن قـبل هؤلاء بالعـرض، قـبضت عليهم قوات العـثمـانيين هنـاك، وكـان عددهم (٢٥) رجلا[٢١].

كانت قـبـائل الشـام كبني صـخـر على عـلاقـة حسنة مع الحـكومـة العثمانيـة، خاصة بعد انتهاء الحكم المصري في بلاد الشام؛ فالرحالة الفلندي جورج أوغست فالين (G. Au.Vallin) الذي مرّ بمنطقـة شـرقي الأردن في عـام ١٨٤٥م (١٢٦١هـ) لحظ هذا الأمر من خـلال استفادة هذه القـبـائل من مـوسم الحج، خـاصـة عندمـا كـانت القـافلة تمكث في مـعـان أربعـة أيام؛ فـتـتـجـمـع هذه القـبـائل عند ذلـك للشـراء والبـيع، والمقايضـة مع الحـجـاج، كمـا لحظ فالين أن بعض البـدو كانوا يقـدمون الماء العذب المتوافر في عين "بخاصة" للحجاج، مقابل مبالغ معينة[٢٢].

وعادت الحكومة العثمانية إلى استخدام سياسة القوة في التعامل مع القـبـائل البـدوية، فـفـي عـام ١٨٦٧م (١٢٨٤هـ) قـام والـي دمـشـق رشـيـد باشـا بحملة ضد قـبـائل شـرقي الأردن في (الشـمـال والوسـط) كبني صـخـر للقـضـاء على قـوتهم، والحـد مـن خطرهم تجـاه القـافلة، حيث أصـبـحـوا يشكلون تهـديدا لسـلامـة الحـجـاج. ورغم إجـراءات

(٢١) دي غوري: حكام مكة، ص ٢٩٩-٣٠٠.

(٢٢) العابدي: أجانب في ديارنا، ص ١٦٢-١٦٣.

الدولة السابقة إلا أن بني صخر ظلوا يفرضون مطالبهم على الدولة، التي كانت تضطر لتنفيذها، تفادياً لأية مواجهات معهم، قد تؤدي إلى تهديد سلامة الحجاج أثناء مرورهم بالمنطقة[٢٣].

كما عادت الحكومة العثمانية إلى استخدام أسلوب الحرمان من جديد للضغط على بني صخر، حيث قررت حرمان شيخها فندي الفايز من امتياز حماية طريق الحج بعد عام ١٨٦٨-١٨٦٩م (١٢٨٥هـ)؛ إذ استغلت موضوع نهب قبيلتي بني صخر والعدوان لمنطقة الرمثا؛ لأن أهلها رفضوا دفع الخوة "الخاوة" لهاتين القبيلتين[٢٤]. كما سيَّر والي دمشق محمد رشيد باشا قوة مؤلفة من كتيبة مشاة، و(٦٠٠) جندي غير نظامي، و(٨٠٠) فارس تحت قيادة شيخ عشيرة ولد علي، كما شارك إسماعيل الأطرش ومعه (١٦٠) درزياً في الحملة، لإخضاع بني صخر والعدوان، ونتيجة لتطور الأوضاع فقد طلب شيخ العدوان علي الذياب الأمان مقابل دفع (٢٥) ألف قرش، كما وقف إلى جانب العثمانيين ضد بني صخر. وبالمقابل تحالف بنو صخر مع بني حميدة للدفاع عن أنفسهم، لكن القوة العثمانية سيطرت على مصادر "منابع" الماء الرئيسة لبني صخر؛ فقام الشيخ فندي الفايز بطلب الأمان من المسؤولين مقابل أن يدفع مبلغ (٢٠٠,٠٠٠) قرش؛ بالإضافة إلى وضع أحد أبنائه رهينة لدى السلطات العثمانية، والتخلي عن امتياز تأمين قافلة الحج، وكان هذا الإجراء مؤقتاً؛ إذ بعد هذه الحادثة تحول امتياز نقل الحجاج من بني صخر إلى عشيرة ولد علي، الذين هزموا بني صخر، وأخذوا منهم ألفي رأس غنم، وثلاثمئة جمل[٢٥]. وعلى الأرجح أن عشيرة ولد علي هزموا بني صخر في عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ)، في منطقة شرقي الأردن.

(23) Lewis: Nomads and Settlers in Syria and Jordan, P.124; Abu-jaber: Pioneers Over Jordan, P.36

(24) Lewis: Nomads and Settlers in Syria and Jordan, P. 125.

(25) Ibid., P.125.; Abu-Jaber: Pioneers Over Jordan , PP. 36-38.



لقد طرأت أمور عدة فيما يتعلق بقافلة الحج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أبرزها؛ تحول طريق سير عدد من الحجاج إلى الطريق البحري بدلاً من الطريق البري، بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ)؛ أما الأمر الآخر فهو التبدّل الذي حدث في إمارة القافلة؛ إذ تمَّ الفصل ما بين منصب ولاية دمشق ومنصب إمارة القافلة، فلم يعد والي دمشق يقود القافلة بعد عام ١٨٧١م (١٢٨٨هـ)، حيث أسندت مهمة قيادة القافلة لأشخاص آخرين؛ ليتفرغوا إلى مهام القافلة وشؤون الحجاج. فقد كان والي دمشق يقوم بمهام ولاية دمشق مضافا إليها حماية القافلة، وتسييرها إلى الأماكن المقدسة لحين عودتها إلى دمشق؛ لذلك فضلت الدولة العثمانية فصل المنصبين عن بعضهما. ولكن رغم هذه التحولات، إلا أن بعض القبائل البدوية كبني صخر، استمرت تقدّم الجمال للقافلة، بل إن علاقة شيخها فندي الفايز مع الدولة العثمانية قد تقوّت بعد عام ١٨٧١م (١٢٨٨هـ) بهدف الحصول على الأموال من العثمانيين؛ إذ لحظ الرحالة ترسترام (Tristram)، أثناء مروره بمنطقة شرقي الأردن في شباط (فبراير) عام ١٨٧٢م (ذي القعدة ١٢٨٨هـ)، أن فندي الفايز سار مع القافلة من حوران حتى الكرك، لمدة ستة أيام، حيث كان فندي الفايز ملتزما بتوفير (٧٠٠) هجان لنقل الحجاج وحراستهم(٢٦).

وكانت الدولة العثمانية حريصة على سلامة القافلة؛ لذلك اهتمت بمسألة الضغط على القبائل البدوية، والحد من قوتها؛ إذ كانت تتحين الفرص لتطبيق ذلك؛ ففي عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ) قام متصرف نابلس بحملة ضد القبائل البدوية في البلقاء والكرك ومعان لتحقيق هذا الهدف(٢٧)، ولإخضاع قبيلة بني صخر بالذات، التي تعهد

---

(26) H.B. Tristram: The Land of Moab, Travels and Discoveries on the East side of the Dead sea and the Jordan, John Murry, London, 1873, P. 228.

(٢٧) نوفان رجا السوارية: عمان وجوارها خلال الفترة ١٢٨١-١٣٤٠هـ/ ١٨٦٤-١٩٢١م، جامعة آل البيت، عمان، ١٩٩٥م، ص ١٢٤-١٢٥.

زعماؤها بحماية الحجاج من الأخطار، ونقلهم على الجمال، التي كانت تستأجرها الحكومة العثمانية من بني صخر(٢٨).

وبقيت قبيلة الحويطات تقوم بمهمة نقل الحجاج من معان حتى شمال الحجاز، حيث أشار لذلك الرحالة الأمريكي هنري ردجواي (Henry B.Ridgaway)، الذي مرّ عبر منطقة شرقي الأردن عام ١٨٧٤م (١٢٩١هـ)، ولحظ بأن الشيخ عرار بن جازي - والد حمد بن جازي - جاء إلى معان في العام نفسه؛ لكي يستقبل قافلة الحج القادمة من دمشق آنذاك، بعد أن رافق الرحالة هنري ومن معه إلى معان(٢٩).

ونلحظ من خلال ما تقدم أن علاقة الدولة العثمانية بالقبائل البدوية، كانت بين مدّ وجزر، فأحياناً حسنة وأحياناً أخرى سيئة، انعكس كل ذلك على أمن القافلة وسلامتها، فهجوم بني صخر على القافلة عام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) مثال واضح على ظاهرة التقلب في هذه العلاقة؛ إذ قام بنو صخر في هذا العام بمهاجمة القافلة أثناء مرورها من أراضيهم، حيث دار قتال بين بني صخر والجنود العثمانيين المرافقين للقافلة، استمر لمدة أربع ساعات كما يذكر داوتي (Doughty)(٣٠).

ورغم محاولات بعض القبائل البدوية الاعتداء على القافلة إلا أن وضع الحجاج قد تحسن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بالمقارنة مع الفترات السابقة، كما يشير لذلك سيلاه مرل (Selah Merrill) في رحلته المسماة "إلى الشرق من الأردن"، الذي لحظ أن نفقات القافلة قد انخفضت عن الفترات السابقة، حيث ذكر أن تمويل القافلة في عام ١٨٧٣م (١٢٩٠هـ) بلغ (٣٥٠,٠٠٠) جنيه، بينما انخفض إلى

(28) Charles M. Doughty: Travels in Arabia Deserta, Jonathan Cape, London, 1964, P. 15.

(٢٩) رحلات في الأردن وفلسطين، ترجمة: سليمان موسى، دار ابن رشد، عمان، ١٩٨٤م، ص٧١، ٧٩.

(30) Doughty: Travels in Arabia, P. 19.



(٤٢,٥٧٥) جنيهـا في عـام ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ)، وأصـبح (٣٩,٠١٩) جنيهـا في عـام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ)؛ بالإضـافـة إلى توصل الحكومـة العثمانية إلى عقد اتفاقات مع القبائل البدوية، التي كانت تعترض الحجاج في الفترات السابقة، على أن تقدم هذه القبائل الجمال لنقل الحجاج مقابل مبالغ مالية، كانت تدفع لها[٣١]. وهذا مؤشر على أن العثمانيين بدؤوا بضبط الأوضاع أثناء مرور القافلة، خاصة بعد فصل منصب إمارة القافلة عن منصب ولاية دمشق.

وأشـار بعض الرحـالة الذين زاروا المنطقـة في أواخـر القـرن التاسع عشـر إلى مسألة نفقات القافلة، وأبرز هؤلاء لورنس أوليفانت (Laurence Oliphant)، الذي زار منطقة شرقي الأردن في عام ١٨٧٩م (١٢٩٦هـ)، حيث ذكر أن مقدار ما كانت تدفعه الدولة للبدو في شرقي الأردن سنوياً وصل إلى ما يقارب (١٠٠,٠٠٠) آقجة، قسم كبير منه كان يعطى لبني صخر الذين وصفهم أوليفانت بأنهم مشهورون بشن الغارات على القافلة، كونهم يسكنون إلى الشرق من طريق الحج[٣٢].

واستمرت الدولة العثمانية في استخدام القوة ضد القبائل الكبيرة، التي كانت تعترض القافلة، ففي عام ١٨٧٩م (١٢٩٦هـ) ردّت عشيرة الأحامدة من قبيلة حرب القافلة، بعد مسيرة يومين من المدينة المنورة باتجاه مكة، حيث مكان وجود قبيلة حرب؛ لذلك عادت القافلة إلى المدينة، ولم تتخلص من خطر الأحامدة إلا باستخدام القوة العسكرية الموجودة في المدينة، بالإضافة للقوة المرافقة للقافلة المؤلفة من (٨٠٠) فارس، ومدافع وذخائر كثيرة[٣٣].

(٣١) سليمان موسى: في ربوع الأردن من مشاهدات الرحالة ١٨٧٥-١٩٠٥م، دائرة الثقافة والفنون، عمان، ١٩٧٤م، ص ٦٧-٦٩.

(٣٢) موسى: في ربوع الأردن، ص ١٣٥؛ وانظر:
Oliphant: The Land of Gilead. PP. 121-122.

(٣٣) إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين والرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، ج ٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥م، ص ٢٦٣، ٢٦٥-٢٦٨.

وشهدت فترة ثمانينيات القرن التاسع عشر علاقة مميزة بين الدولة العثمانية وقبيلة بني صخر، خاصة بعد تولي سطام فندي الفايز زعامة بني صخر متوليا مهام والده الذي توفي في عام ١٨٨١م (١٢٩٨هـ)، حيث كانت له علاقة بوالي دمشق محمد سعيد باشا، وابتداءً من هذا التاريخ أصبح بنو صخر مسؤولين عن أمن طريق الحج ومنازله وحماية الحجاج، كما التزموا بتقديم جمالهم للقافلة، علاوة على تكفلهم بنقل المؤن والذخائر من المزيريب[٣٤] حتى القطرانة، مقابل مبالغ نقدية كانوا يتلقونها إضافة للصرة السنوية[٣٥]. كما تقربت الدولة العثمانية من عشيرة ولد علي[٣٦]، وأبعدت في الوقت نفسه الرولة، بهدف إيجاد نوع من التوازن بين قوة هذه العشائر، حيث أسندت مهام نقل الحجاج إلى عشيرة ولد علي؛ إذ تعهد الشيخ محمد بن دوخي بنقل الحجاج بعد خروجهم من دمشق، وتزويدهم بالجمال، كما تعهد الشيخ محسن وهو أيضا من عشيرة ولد علي، باستقبال الحجاج سنوياً عند المدينة المنورة، والالتقاء بأمير القافلة ومعه الصرّة[٣٧].

(٣٤) المزيريب: من منازل قافلة الحج الشامي، واد فيه قلعة عظيمة، يجتمع فيها الحجاج، وفي أطرافها قرى ونواح يسكن فيها الحوارنة، وعندها بحرة ماء ينتهي ماؤها إلى جسر الجوامع "المجامع"، تقع الآن في الأراضي السورية. انظر: ابن علوان: منازل الحج، ص ٢٧٧ب؛ ابن كبريت: رحلة الشتاء والصيف، ص ٢٣١.

(٣٥) جريدة البشير "بيروت"، ع (٥٩٠)، ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨١م، ص ٣؛ السوارية: عمان وجوارها، ص ١٥١-١٥٢.

Doughty:Travels in Arabia Deserta, P. 54.

(٣٦) وصل عدد أفراد عشيرة أولاد علي - حسب تقرير سالنامة ولاية سورية - حتى عام ١٨٨٤م، إلى (٣,٠٠٠) نسمة، وكانوا يسكنون إلى الشرق من درعا في حوران، وكان الشيخ محمد الدوخي على علاقة قوية بالدولة العثمانية، حيث كان يملك الجمال التي تزود بها قافلة الحج الشامي، انظر: سالنامة ولاية سورية عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م، ص ٢٢٩.

Doughty: Travels in Arabia Deserta, P. 55.

(٣٧) سالنامة ولاية سورية عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م، ص٢٤١.

Doughty: Travels in Arabia Deserta, PP. 55, 240.



وهكذا يتبيّن لنا أن الدولة العثمانية اتبعت سياسة التودد لبعض القبائل والعشائر، خاصة القوية منها كقبيلة بني صخر وعشيرة ولد علي، حتى إنها أنعمت على بعض شيوخ هذه القبائل والعشائر بالأوسمة، والخلع، وأحياناً الرتب، كما حدث مع سطام فندي الفايز أبرز شيوخ بني صخر(٣٨)، الذي عينته الدولة مديراً لناحية الجيزة "زيزياء"(٣٩)، بهدف كسب رضا بني صخر، ومحافظتهم على سلامة الحجاج. وهذا الإجراء ينسجم مع توجه العثمانيين آنذاك، بإسناد مناصب إدارية لشيوخ بعض القبائل.

وكان لقبيلة شمر - الموجود قسم منها في منطقة شرقي الأردن - دور في نقل الحجاج وتأمين القافلة، حين مرورها من مناطقهم، في نهاية القرن التاسع عشر، حيث ذكر الرحالة العثماني "سويلة مز أوغلي"، الذي زار بلاد الشام، أنه التقى أحد شيوخ شمر دريبي بن زبن، زعيم عشيرة زبن - الذي كان يسكن هو وعشيرته بالقرب من عين الزرقاء، وتتألف من ٣٠٠ خيمة - التقاه بالقرب من الرمثا في ٢٩ أيار (مايو) ١٨٩٠م (١٠ شوال ١٣٠٧هـ)، حيث استقبل ابن زبن القافلة هناك، بعد خروجها من المزيريب؛ إذ لحظ الرحالة "سويلة مز أوغلي" أن ابن زبن يحمل خاتماً فضياً، كان قد أهداه إياه إبراهيم باشا، يحمل تاريخ ١٢٦٣هـ/١٨٤٠م، كان يستخدمه ابن زبن عند تسلمه الأعطية السنوية المخصصة له من قبل الدولة العثمانية(٤٠).

(٣٨) ذكرت سالنامة ولاية سوريـة أن عدد نفوس بني صخر في قضاء عجلون في عهد الشيخ سطام فندي الفايز، بلغ (٥,٠٠٠) نسمة. سالنامة ولاية سورية عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م، ص٢٢.

(٣٩) سالنامة ولاية سورية عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م، ص١٨٠؛ وانظر: المصدر نفسه، عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م، ص ٢٣٦.

(٤٠) سويلة مز أوغلي: رحلة سويلة مز أوغلي إلى بلاد الشام ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م، تحقيق وترجمة: فاضل مهدي بيات، جامعة آل البيت، المفرق، ٢٠٠٠م، ص ١٣٥-١٣٦.

يلحظ أن الشيخ ابن زبن كان على علاقة حسنة مع السلطات العثمانية في دمشق؛ إذ لحظ "سويلة مز أوغلي" أن جماعة ابن زبن، قدَّمت الدعوات لأمين الصرة وأمير القافلة وبعض مرافقيها، لتناول الطعام عند الشيخ ابن زبن، كما لحظ "سويلة مز أوغلي" أن أبناء ابن زبن وإخوانه وأبناء عمومته، اهتموا بالقافلة وحموها طوال فترة استضافتهم لأمير القافلة ومن معه[٤١]. ويمكن القول: إن قبيلة شمّر وخاصة عشيرة ابن زبن - في هذه الفترة - بحكم سيطرتها على المنطقة ما بين الرمثا شمالاً وعين الزرقاء جنوباً، قد حمت القافلة، وكانت تقوم على خدمة الحجاج.

وعادت بعض القبائل إلى عادة الاعتداء على القافلة، في بداية تسعينيات القرن التاسع عشر، حيث هاجم بعض البدو من قبائل شرقي الأردن القافلة في عام ١٨٩٢م (١٣٠٩هـ) دون معرفة القبائل التي ينتمون إليها؛ لأن الدولة رفضت دفع المخصصات المستحقة لهم جراء حماية الحجاج في الفترة ما بين ١٨٨٠ - ١٨٩١م (١٢٩٧-١٣٠٨هـ)، وعاقبت الدولة هؤلاء البدو، حيث أرسلت لهم حملة تأديبية، وصل عدد أفرادها إلى مئات الجنود، لإخضاعهم وتأديبهم[٤٢].

إن خطورة الاعتداءات المتكررة ضد القافلة في منطقة شرقي الأردن دفعت المسؤولين العثمانيين إلى التفكير جدياً في إنشاء لواء في معان والكرك بين عامي ١٨٩١ - ١٨٩٤م (١٣٠٨-١٣١١هـ)؛ فبالإضافة إلى تحقيق أمر سلامة قافلة الحج الشامي والحد من اعتداءات البدو، فإن هناك أهدافاً أخرى سعى العثمانيون لتحقيقها، أبرزها؛ توفير مبالغ مالية كانت تدفعها الدولة للقبائل البدوية مقابل حماية قافلة الحج على طول الطريق ما بين دمشق ومعان؛ وذلك ببسط السيطرة

إن خطورة الاعتداءات المتكررة ضد القافلة في منطقة شرقي الأردن دفعت المسؤولين إلى التفكير في إنشاء لواء في معان والكرك

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٣٨-١٣٩.
(٤٢) السوارية: عمان وجوارها، ص ١٢٦.



على هذه المنطقة، والبعض كانت تخسره نتيجة الاعتداءات على القافلة، قدرت بـ "٩٠٠,٠٠٠" قرش(٤٣).

وتغيّر تعامل الدولة العثمانية مع القبائل البدوية بشكل فعلي، بعد إنشاء لواء الكرك عام ١٨٩٣م (١٣١٠هـ)، حيث سعت الدولة إلى توطيد العلاقة مع البدو بعد هذا الإنجاز الإداري؛ فخصصت رواتب سنوية لبعض شيوخ القبائل، لكسب ودهم ورضاهم، والمحافظة على سلامة القافلة، أثناء مرورها في مناطقهم(٤٤).

وكان بعض شيوخ منطقة شرقي الأردن يتلقى رواتب من الحكومة العثمانية، كشيخ مشايخ قبيلة بني صخر فندي الفايز، حيث بلغ مقدار راتبه عام ١٨٩١م (١٣٠٨هـ) أربع مجيديات(٤٥). ويمكن أن تعزى مبادرة الدولة السابقة، المتضمنة تخصيص رواتب سنوية لبعض شيوخ قبائل الشام - رغم أنها رواتب بخسة - إلى السعي لكسب ودّ هؤلاء إلى جانبها، وبالتالي التعاون ما بين الطرفين، وخاصة مع والي دمشق، الذي كان همّه المحافظة على القافلة، وتأمين الجمال للحجاج. ومما يلفت النظر قلة ما كان يصرفه العثمانيون لشيوخ القبائل البدوية.

وبقيت مشكلة تأمين القافلة قائمة لدى الحكومة العثمانية، خاصة عند اقترابها من الديار المقدسة؛ فقد ذكر الرحالة الروسي عبدالعزيز دولتشين، أثناء رحلته إلى مكة في عام ١٨٩٨م (١٣١٥هـ)، أن بعض البدو هاجموا الحجاج؛ لأنهم رفضوا إعطاء هؤلاء البدو بعض الأموال، في الوقت الذي كانت لديهم بضائع مغرية للبدو، خاصة أن الحجاج كانت لديهم "زنانير ضخمة جداً" يحفظون بها أموالهم الخاصة، لينفقوها أثناء موسم الحج، كانت تجذب أنظار البدو إليهم. وكان مكمن الخطر

(43) Engin Deniz AKarli: "Establishment of the Ma'an - Karak Mutasarrifiyya 1891-1894".

بحث منشور في مجلة دراسات - الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، م ١٣، ع ١، ١٩٨٦م، ص ٣١.

(٤٤) سالنامة ولاية سورية عام ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م، ص ٣٠١.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٠١.

في المنطقة الواقعة ما بين المدينة المنورة وينبع، حيث أشار دولتشين أن قبيلة حرب أغلقت طريق "ينبع – المدينة" لمدة ثمانية أشهر في عام ١٨٩٧م (١٣١٤هـ)، مما أدى إلى ارتفاع أسعار بعض السلع الضرورية، مثل: الشاي، والسكر، والطحين، وغيرها في الديار المقدسة[٤٦].

وكانت الدولة العثمانية تدرك خطورة قبيلة حرب؛ لذلك خصصت قوة في عام ١٨٩٨م (١٣١٥هـ)، رافقت القافلة مكونة من (٥٥٠) شخصا من الخيالة، من بينهم (١٥٠) شخصا على الهجن، و (٢٠٠) من الضبطية الخيالة؛ بالإضافة إلى مدفعين جبليين[٤٧]. وكان هدف هذه القوة التصدي لأي اعتداء تقوم به قبيلة حرب ضد القافلة، خاصة بعد إغلاقها لطريق "ينبع – المدينة" في العام السابق.

ولم يقتصر الخطر على القبائل الحجازية، بل إن بعض القبائل الشامية ظلت تشكل ضغطاً في حالات كثيرة على العثمانيين؛ ففي عام ١٨٩٨م (١٣١٥هـ) عمدت قبيلة الحويطات في جنوب منطقة شرقي الأردن إلى العصيان ضد العثمانيين، حيث أعلنت نيتها الانضمام إلى مصر بدلاً من الدولة العثمانية؛ بسبب امتناع الأخيرة عن دفع المرتبات التي كانت تدفعها إلى شيوخ الحويطات، في الوقت الذي قلّ مردود قافلة الحج الشامي على القبائل البدوية في المنطقة، بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م (١٢٨٦هـ)، حيث تحول كثير من الحجاج إلى مصر، وأصبحوا يحجون بحراً. لقد أجبر موقف الحويطات السابق الحكومة العثمانية على إعادة دفع مرتبات شيوخ الحويطات من جديد، يضاف إليهم شيوخ قبائل بئر السبع[٤٨].

(٤٦) عبدالعزيز دولتشين: الرحلة السرية للضابط الروسي عبدالعزيز دولتشين إلى مكة المكرمة ١٨٩٨–١٨٩٩م، الصراع الدولي على الجزيرة العربية والعالم الإسلامي، رواية وصفية بديعة للتاريخ والجغرافيا والسياسة والاجتماع والإدارة، المعروف بالحج قبل مئة سنة، ترجمة: يفيم ريزفان، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ١٩٩٣م، ص ١٢٤–١٢٥.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

(٤٨) رحلات في الأردن وفلسطين، ص ١٦٢–١٦٣.



ورغم ما تقدم، يتبيّن لنا من الجدول الآتي أن عدد مرات اعتداءات العشائر البدوية ضد القافلة قد تراجع في القرن التاسع عشر قياساً بالقرون السابقة[٤٩]، حيث لم يتجاوز عددهن خمسة اعتداءات، اثنان منها وقعا في منطقة شرقي الأردن، وآخران في منطقة الحجاز، بينما هناك اعتداء مكانه مجهول. ولم تكن هذه الاعتداءات مؤثرة على الحجاج، كما حدث في اعتداءات سابقة، بل كانت اعتداءات بسيطة، انتهت دون حدوث أية نتائج سلبية. وهذا يعود إلى أن العثمانيين استطاعوا إحكام سيطرتهم - إلى حد ما - على طريق القافلة، كما توثقت علاقتهم بالقبائل البدوية، وبالذات القوية منها.

جدول اعتداءات العشائر البدوية ضد قافلة الحج

السنة	المكان	جهة الاعتداء	النتائج
١٨١٥م (١٢٣٠هـ)	بين الكرك ومعان	العمران	نهب سرايا القافلة.
١٨٧٦م (١٢٩٣هـ)	المنطقة الواقعة شرقي الكرك	بنو صخر	لم ينتج عن الاعتداء أية خسائر.
١٨٧٩م (١٢٩٦هـ)	المنطقة الواقعة بين المدينة المنورة ومكة	الأحامدة	ردّ القافلة إلى المدينة المنورة وزوال خطر البدو بوساطة القوة العسكرية الموجودة هناك.
١٨٩٢م (١٣٠٩هـ)	مجهول	مجهول	إرسال حملة تأديبية لإخضاع البدو وتأديبهم.
١٨٩٨م (١٣١٥هـ)	بالقرب من المدينة	حرب	مهاجمة القافلة، وأخذ بعض الأموال، وتسيير حملة ضد قبيلة حرب لإخضاعهم لسلطان الدولة العثمانية.

(٤٩) بلغ عدد الاعتداءات في القرون ١٦، ١٧، ١٨م (١٠، ١١، ١٢هـ) سبعة وعشرين اعتداء. انظر: إبراهيم الشرعة، الدراسة السابقة، ٢٠٠٢م، ص ٣٢٤، ٣٢٧، ٣٤١.

موقف القبائل البدوية من مشروع الخط الحديدي الحجازي:

لقد تراخت قبضة الدولة العثمانية على منطقة شرقي الأردن في بداية القرن العشرين، رغم استحداثها للواء الكرك عام ١٨٩٣م (١٣١٠هـ)، حتى بلغ الأمر أن اضطرت إلى دفع الهبات النقدية للقبائل البدوية؛ كي تتكفل بحماية القافلة، عند مرورها بالمنطقة، التي كانت تقطن بها بعض القبائل(٥٠).

استمرت الدولة العثمانية في دفع مرتبات سنوية للقبائل البدوية وبالذات لقبيلة الحويطات مقابل حماية القافلة، حيث كان الشيخ كليب بن قبلان يتقاضى سنوياً مبلغاً وقدره "١٠٨" قروش ونصف أردب شعير(٥١). وهذا الأمر ينطبق على بني عطية؛ إذ كان بعض شيوخهم يتقاضى أيضاً مرتبات سنوية من الدولة للغاية نفسها، فالشيخ سالم بن علي بن رشيد كان يتقاضى "أردب الشعير في جردة(٥٢) الحج السنية من الإحسانات السامية في كل سنة"(٥٣)، حتى تنازل عن هذا الامتياز إلى الشيخ خليل أفندي الشراري مقابل "٢٠" مجيدياً في نهاية عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ)(٥٤).

---

(٥٠) حبيب حنا البيتلحمي: "صفحات من حياة البادية في الأردن ١٩٠١-١٩٠٥م"، ضمن كتاب: رحلات في الأردن وفلسطين، ص ١٢٠.

(٥١) سجل شرعي معان ١، ج ٢، ٥ صفر ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م، ص ١٢٣.

(٥٢) الجردة (Jurde): تطلق على القافلة التي تحمل المؤن إلى قافلة الحج، وهي في طريق عودتها من الحجاز، وكان أميرها على الأغلب من باشوات حلب أو طرابلس أو صيدا، وأحيانا من غزة. وكان على أمير الجردة توفير الزيت والشعير والأرز والملابس، والعليق ليستفيد منه الحجاج. وكانت الجردة تقابل قافلة الحج في طريق عودتها عند هدية، ثم تسبق الجردة قافلة الحج عند العودة إلى دمشق، ويقدر الحلاق الوقت الذي تستغرقه الجردة بخمسين يوما ذهابا وإيابا. انظر أحمد البديري الحلاق: حوادث دمشق اليومية (١١٥٤-١١٧٥هـ/ ١٧٤١-١٧٦٢م)، تحقيق: أحمد عزت عبدالكريم، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ١١-١٢؛ ابن كنان: المواكب الإسلامية، ق١، ص٦٥.

(٥٣) سجل شرعي معان ١، ج ١، ١٩ رجب ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م، ص ١٣٥.

(٥٤) المصدر نفسه، ج ١، ١٩ رجب ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م، ص ١٣٥.



ولكن الدولة العثمانية عادت إلى استخدام القوة من جديد ضد القبائل البدوية التي كانت تسبب لها إزعاجات؛ ففي عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ) طلب والي المدينة المنورة أحمد راتب باشا (٣٠٠٠) رجل من دمشق، حتى يخضع القبائل البدوية الموجودة بين ينبع والمدينة المنورة، وخاصة قبيلة حرب(٥٥).

وظهر تطور جديد لدى العثمانين في بداية القرن العشرين، وهو مد خط حديدي يربط دمشق بالمدينة المنورة، أصبح يسمى بالخط الحديدي الحجازي(٥٦)، كان وراء إنشائه دوافع عدة، أبرزها(٥٧):

أولاً: أن رحلة قافلة الحج كانت تستغرق ما يقارب من الثلاثة شهور ذهاباً وإياباً، وما يرافقها من متاعب ومشاق عبر الصحراء.

(55) William.L. Ochsenwald:" Opposition to political Centralization in south Jordan and the Hijaz, 1900-1914",The Muslim World, "California", Vol. (LX III), No, (4), October, 1973, P. 299.

(٥٦) للتعرف على أهم محطات الخط الحديدي الحجازي والمسافة بين هذه المحطات وتاريخ بناء كل محطة، انظر:

Walter Pinhas Pick: “Meissner Pasha and the construction of railways in Palestine and neighbouring countries”.

بحث منشور بعنوان:

Ottoman Palestine 1800-1914,Studies in Economic and Social History , edited: GAD.G.Gilber, University of Haifa, 1990, P. 203.

محمد الدقن: سكة حديد الحجاز الحميدية دراسة وثائقية، د. ن، د. م، ١٩٨٥م، ص١٩٨-٢٠٤؛ محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر سنة ١٣٢٧هـ، القاهرة، ١٩١٠م، ص ٢٣٦-٢٣٧؛ مجلة مجلس المبعوثان، دورة انتخابية ٣، حجاز وعسكري تيمور يوللر وليمانلر-مديريت عمومية سي بودجه سي، ١٣٣٣هـ، ص ٣.

(٥٧) انظر محمد كرد علي: "سكة الحجاز"، المقتطف، ج ١١، م ٢٩، ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٤م، ص٩٧١؛ وليم أوكسنوالد "سكة حديد الحجاز "، رحلات في الأردن وفلسطين، ص ١٣٢-١٣٣؛ عبدالعزيز محمد عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤م، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م، ص٨١؛

Walid Kazziha: The Social History of Southern Syria (Trans - Jordan) in the 19th and Early 20 Century, Beirut Arab University , Beirut, 1972, P.22.

ثانياً: خطر القبائل البدوية شبه الدائم على القافلة، وضعف العثمانيين، وعدم امتلاكهم وسائل حديثة، كالقطارات والسيارات وأجهزة اللاسلكي لنقل الحجاج والتحكم بطريق الحج.

ثالثاً: توفير أسباب الراحة للحجاج، وتسهيل سفرهم إلى الأماكن المقدسة وعودتهم سالمين إلى بلادهم.

رابعاً: إلى جانب الغرض الديني، كان هناك هدف عسكري تمثل في إزالة الانطباع عن الدولة العثمانية وظهورها بمظهر العاجز أمام الدول الأجنبية، وخاصة تلك الدول التي تحكم شعوباً إسلامية، وأمام الثورات التي تقوم بها الشعوب المحكومة، وخاصة اليمن.

خامساً: إيجاد طريق بديل لقناة السويس التي سيطرت عليها بريطانيا عام ١٨٨٢م (١٣٠٠هـ)، فكانت فكرة إنشاء الخط الحديدي الحجازي هي البديل عن القناة[٥٨].

لقد عارضت القبائل البدوية مد الخط الحديدي الحجازي وقاومته، وشنت غارات عنيفة ضده؛ لأن مد الخط كان يلحق خسائر مادية كبيرة بالبدو، حيث كانوا يؤجرون في كل سنة آلاف الجمال للدولة، لنقل الحجاج، ويقبضون مقابل ذلك مبالغ كبيرة من الأموال[٥٩]؛ وكان أوسع تجمع قبلي عارض مد الخط الحديدي في الحجاز وذلك في بداية عام ١٩٠٧م (١٣٢٥هـ)، مؤلف من أبرز قبيلتين هناك هما: حرب وعطية[٦٠]. وفي عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) هاجم البدو الخط في المدينة، حيث كان هذا الهجوم نابعاً من خوفهم لفقدان ذلك المردود الاقتصادي المهم؛ بالإضافة إلى إدراك البدو بأن

(٥٨) وجيه الخيمي: الخط الحديدي الحجازي ماضيه وحاضره ومستقبله، مجلة الفيصل، ع ٣٢، صفر ١٤٠٠هـ، ص١٢.

(٥٩) خالد حمود السعدون: "مقاومة القبائل لسكة حديد الحجاز أسبابها وتطوراتها"، مجلة الدارة، ع ٢، السنة ١٤، ١٤٠٩هـ، ص٤٩؛ الدقن: سكة حديد الحجاز الحميدية، ص٢٤٣-٢٤٤.

(60) Ochsenwald: Opposition to political Centralization, P. 300.

الخط سيمنح الدولة العثمانية وسيلة آلية ضخمة وسريعة، لحشد الجنود ضدهم في مناطق كانت الدولة في السابق، تتحاشى دفع جنودها إليها(٦١).

وهاجم البدو في شرقي الأردن العمال الذين كانوا يعملون في مد الخط، بالإضافة إلى خطوط السلك البرقي(٦٢)، وكان الهدف من مثل هذه الاعتداءات وقف العمل بالمشروع، لإدراك هؤلاء البدو حجم الخسارة الناتجة عن مد الخط، وبالتالي توقفهم عن نقل الحجاج، وما يتبع ذلك من توقف الدولة عن دفع الهبات السنوية لشيوخ القبائل البدوية(٦٣)؛ لذلك أرسلت الحكومة العثمانية الإمدادات العسكرية إلى الحامية العسكرية العثمانية قرب معان في بداية عام ١٩٠٧م (١٣٢٥هـ)، لحمايتها من الهجمات التي كان يقوم بها بنو صخر(٦٤).

واستمرت اعتداءات البدو ضد الخط الحديدي ومنشآته بغية إحباط المشروع، إلى ما بعد إنجازه وتشغيل الخط، حيث بلغت تلك الاعتداءات في عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ) وحده (١٢٨) اعتداءً، كان يرافق هذه الاعتداءات قطع أسلاك البرق، ونزع القضبان، وإتلاف مباني المحطات، ونهب المسافرين؛ لأن الخط من وجهة نظرهم ذلك الشيء "الفرنجي النجس"، الذي يهدد مصالحهم التقليدية في نقل الحجاج(٦٥). كما أطلق البدو على القطار اسم جحشة السلطان(٦٦).

(٦١) وليم أوكسنوالد: "سكة حديد الحجاز... القصة والمغامرة"، تقديم سليمان موسى، مجلة العربي، ع ٢٧٦، تشرين الثاني ١٩٨١م، ص١٤٧.

(62) Kazziha:The Social History of Southern Syria (Trans- Jordan), P.22.

(٦٣) المرجع نفسه، ص ٢٢؛ رحلات في الأردن وفلسطين، ص ١٦١-١٦٢.

(64) Ochsenwald: Opposition to Political Centralization, P.300.

(٦٥) الدقن: سكة حديد الحجاز الحميدية، ص٢٤٤؛ وانظر: دائرة المعارف الإسلامية، م ١٣، كتاب الشعب، القاهرة، ط٢، د. ت، ص ٣٣٥.

(٦٦) عبدالكريم غرايبة: عرب، "الجزيرة العربية"، القسم الثاني، كتاب تحت الطبع، ص ١٤.

لم تقتصر اعتداءات القبائل البدوية على الخط الحديدي ومعداته، بل تعدت ذلك إلى مهاجمة القوات التي كانت تقوم بحراسة مرافق الخط؛ ففي عام ١٩٠٨م (١٣٢٦هـ)، شنّ بعض البدو من عوف إحدى فروع قبيلة حرب، هجوماً ضد قوة كانت ترافق المشرف العام على الخط الحديدي الحجازي والي المدينة المنورة المشير كاظم باشا، قتل خلال هذا الهجوم (١٠٠) فرد، كما ردّ هؤلاء البدو كاظم باشا والقوة التي كانت ترافقه، البالغة (١٥٠٠) فرد، من مكة إلى المدينة[٦٧].

وفي شباط (فبراير) عام ١٩٠٩م (المحرم ١٣٢٧هـ)، هاجم البدو الخط الحديدي في المنطقة الواقعة ما بين المدورة وحالة عمار، حيث عطلوا الخط الحديدي وقطعوا الأسلاك البرقية، وبسبب هذا الهجوم رفضت الحكومة العثمانية دفع الأموال "الجعل" المعتادة لهم؛ فأرسلت الحكومة العثمانية فرقة عسكرية بقيادة رائد (قول أغاسي) ومعه عدد من الجنود، من معان إلى هؤلاء البدو لتأديبهم[٦٨].

واستمر البدو في اعتداءاتهم ضد الخط الحديدي، حيث جاء في تلغراف من محطة العلا، أن البدو عادوا في شهر شباط (فبراير) عام ١٩٠٩م (المحرم عام ١٣٢٧هـ)، واعتدوا على الخط ثانية بين الجفيرة أو "الحفيرة" والمحيط؛ فقتلوا أحد الجنود العثمانيين هناك. وفي ٢٠ شباط من العام نفسه (٣٠ المحرم عام ١٣٢٧هـ) هاجموا الخط، وأحرقوا أعمدة الأسلاك البرقية، وسلبوا مبعوث الدولة العثمانية يوسف شحادة، الذي أرسلته للتفاهم مع البدو وتقديم النصيحة لهم[٦٩]. ولكن المأمور المكلف بمفاوضة البدو المدعو يوسف

(٦٧) انظر إبراهيم باشا: مرآة الحرمين، ج٢، ص٢٦٢-٢٦٣؛ السعدون: مقاومة القبائل لسكة حديد الحجاز، ص٥١-٥٢؛

Ochsenwald: Opposition to Political Centralization, P. 300.

(٦٨) جريدة البشير، ع ١٨٩٩، السبت ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٠٩م، ص٢.

(٦٩) جريدة العمران، ع ٣٩٧، السبت ٦ شباط (فبراير) ١٩٠٩م، ص٣٦٨؛ جريدة البشير، ع ١٩٠٢، الاثنين ١٥ آذار (مارس) ١٩٠٩م، ص٢.



شحادة، استطاع التوصل إلى اتفاق مع هؤلاء البدو، للحفاظ على الخط الحديدي ومنشآته؛ فضمن له البدو المحافظة عليه، فأصبح في مأمن من هجماتهم(٧٠).

وأرضت الدولة زعماء القبائل البدوية، بإعطائهم بعض الأموال للتخلص من إزعاجاتهم المتكررة، فقد ذكر أمير قافلة الحج عبدالرحمن باشا اليوسف أنه عقد صلحاً مع عشيرتي عوف وولد علي، بعد نهبهما القافلة. حيث قبل البدو بالصلح مع المسؤولين العثمانيين للحصول على مرتباتهم، "ومن أجل مصالحهم في الموسم الحالي (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م)"، خاصة أعطياتهم من والي مكة بحري باشا، مقابل مساعدة الحجاج أثناء عودتهم من الحجاز إلى الشام(٧١).

وأوردت جريدة "المؤيد" القاهرية في شباط (فبراير) عام ١٩٠٩م (المحرم ١٣٢٧هـ) بأن بعض القبائل البدوية الشامية قد خربت الخط الحديدي بين تبوك ومعان، وقطعت الأسلاك البرقية؛ لذلك فقد صرف النظر عن إعادة الحجاج بالطريق الحديدي(٧٢).

وزادت اعتداءات القبائل ضد الخط الحديدي في نهاية عام ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ) بهدف تدميره حتى مدائن صالح، حيث نجحت بعض القبائل في تخريب ما يقارب من كيلومتر واحد من الخط الحديدي، بالإضافة إلى قلع القضبان والعوارض الخشبية(٧٣)، حيث عطّل قسم من الخط، كما هجم بعض البدو على بعض الجنود الذين كانوا يحرسون الخط، ولكن تم طردهم عن طريق الخيالة المخصصة لمطاردة البدو(٧٤). ولا يعرف انتماء البدو المعتدين، ولا منطقة الهجوم.

(٧٠) جريدة البشير، ع ١٩٠٦، السبت ١٠ نيسان (أبريل) ١٩٠٩م، ص٣.
(٧١) جريدة العمران، ع ٤٠١، السبت ٦ آذار (مارس) ١٩٠٩م، ص٤٢٩-٤٣٠.
(٧٢) جريدة المؤيد، ع ١٦٢٥، الأربعاء ١٧ شباط (فبراير) ١٩٠٩م، ص٥.
(٧٣) السعدون: مقاومة القبائل لسكة حديد الحجاز، ص٥٣-٥٤.
(٧٤) جريدة البشير، ع ١٩٢٢، الاثنين ٢ آب (أغسطس) ١٩٠٩م، ص٣.

واتخذت وزارة الحربية العثمانية بعض الإجراءات الفعالة "للضرب على أيدي أشقياء العربان"(٧٥).

ونتيجة لظهور خطر القبائل البدوية على الخط الحديدي الحجازي، وتهديد القافلة، فقد اتخذت الدولة العثمانية إجراءات عدة لحماية الخط الحديدي، أبرزها:

أولاً: إنشاء فرق الهجانة لمراقبة الخط وحراسته.

ثانياً: تأليف لجنة في مجلس المبعوثان "النواب" العثماني مكونة من: عبدالحميد الزهراوي، وشفيق المؤيد، وسليمان البستاني، لتولي أمور حسابات الخط، ومعرفة مقدار ما ينفق على الخط وتصليحه عند تخريب بعض أجزائه.

ثالثاً: الاكتفاء بوصول الخط الحديدي إلى المدينة المنورة، والعدول عن الخط المراد إنشاؤه بين جدة ومكة، بالإضافة إلى تحسين حالة البلاد الاقتصادية(٧٦).

رابعاً: تخصيص قوة عسكرية تجاوز عددها خمسة آلاف جندي نظامي لحراسة منشآت الخط الحديدي، حتى تم الانتهاء من تنفيذ المشروع بشكل كامل.

خامساً: بناء قلاع جديدة ملحقة بالمحطات وتزويدها بالجنود لحراسة الخط الحديدي وحماية منشآته من غارات البدو المتصلة.

سادساً: تخصيص مجموعة من الجنود المشاة لحراسة خطوط البرق، ابتداءً من معان إلى المدينة، ومن معان إلى العقبة، وإصلاح ما عطّل منها(٧٧).

---

(٧٥) جريدة البشير،ع ١٩٢٥، الاثنين٢٣ آب (أغسطس) ١٩٠٩م، ص٣.

(٧٦) جريدة البشير، ع ١٩٠١، الاثنين ٨ آذار (مارس) ١٩٠٩م، ص٣.

(٧٧) الدقن: سكة حديد الحجاز الحميدية، ص٢٤٨-٢٤٩.



ونستطيع القول بأن القبائل البدوية كانت تعتمد بشكل أساسي على ما تجنيه من نقل الحجاج؛ فهذه القبائل تنتظر موسم الحج من العام إلى العام، ولكن مع تنفيذ الخط الحديدي الحجازي، فقد خسرت هذه القبائل مصدراً مالياً كبيراً، حيث قطعت أرزاقها، فلم تفكر الدولة العثمانية بأوضاع هذه القبائل بشكل جدي، بل تهاونت في حل مشاكلها، ولم تعمل على استقرارها، وتحضرها، والانتفاع من الزراعة مثلاً لتسهيل حياتها، إلا في أوقات متأخرة من عمر الدولة العثمانية؛ لذلك قاومت معظم القبائل البدوية الشامية والحجازية مشروع الخط الحديدي، بل حاولت الاعتداء على منشآت الخط مرات عدة، وهاجمت محطاته، وقطعت أسلاك البرق.

كانت القبائل البدوية تعتمد بشكل أساسي على ما تجنيه من نقل الحجاج

ورغم ما تقدم، إلا أن بعض هذه القبائل البدوية، خاصة تلك التي كانت تقطن في منطقة شرقي الأردن، لم تقاوم تنفيذ المشروع، كالحويطات وبني صخر مثلاً؛ لأن شيوخها ظلوا يتلقون مستحقاتهم المالية من والي دمشق، حيث ذكر ألويس موسيل (Alois Musil) بأن شيخ الحويطات عودة أبو تايه ومعه أربعون فارساً من وجهاء الحويطات، كانوا عائدين من معان في نهاية شهر أيار (مايو) عام ١٩١٠م (جمادى الأولى عام ١٣٢٨هـ)، بعد أن طالبوا المسؤولين العثمانيين في معان، بدفع الأموال المخصصة لهم، مكافأة على حماية الحج(٧٨). أما الشيخ طلال فندي الفايز، فقد أدرك هو وزعماء القبائل الآخرون أن العثمانيين يريدون وقف معوناتهم المالية؛ إذ كان بنو صخر يتلقون (٤,٠٠٠) ليرة عثمانية لحماية الخط الحديدي وحراسته، لكنهم أقنعوا المسؤولين العثمانيين بالاستمرار في الدفع، وبالمقابل فإنهم سيسهلون إنشاء الخط، ويقومون بحمايته؛ لذلك فقد

(٧٨) ألويس موزيل: الحجاز الشمالي، غربيون في بلاد العرب، ترجمة: سليمان موسى، وزارة الثقافة والإعلام، عمان، ١٩٦٩م، ص٣٥-٣٦.

تم إعطاء بني صخر مسؤولية حماية الجزء الممتد من الجيزة إلى القطرانة شرقي الكرك. ورغم هذه الوعود إلا أن الحكومة العثمانية لم تدفع رواتب الشيخ طلال الفايز مثلاً، كما لم تدفع المعونات المالية بصورة منتظمة، مما أدى إلى مهاجمة الخط الحديدي الحجازي[٧٩].

ولم تكن كل القبائل البدوية في منطقة شرقي الأردن تتلقى هذه الأموال؛ لذلك كان بعضها يهاجم الخط؛ ففي ٦ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩١٠م (٤ ذي الحجة عام ١٣٢٨هـ)، هاجم (١٥٠) فارسا (لا يعرف لأية قبيلة ينتمون) محطة القطرانة، ونهبوها، وقتلوا مأمورها، وجرحوا بعض العاملين فيها، وعددهم أربعة، كما هاجموا المحطات الواقعة بين القطرانة وضبعة، وخربوا الخط الحديدي، وقطعوا الأسلاك البرقية فيها. كما قطعوا أسلاك البرق في الكرك. هذا بالإضافة إلى اعتراض البعض للقطارات وإطلاق الرصاص عليها، الأمر الذي أدى إلى قطع المواصلات بين عمان ومعان في نهاية عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ)[٨٠]. كما جاء في برقية مرسلة من قائمقام السلط إلى دمشق في ٦ كانون الأول (ديسمبر) في العام نفسه (٤ ذي الحجة عام ١٣٢٨هـ)، أن قبيلتي بني حميدة والسليط، اشتركتا في الهجوم ضد مأموري تحرير النفوس والعسكر الموجودَيْن في ناحية مادبا. كما تمّ قتل بعض المأمورين والعسكر الموجودين في مركز لواء الكرك وملحقاته[٨١]. ويبدو أن سبب ذلك هو وقف المعونات المالية، ونزع سلاح القبائل، وفرض التجنيد الإجباري على البدو.

---

(79) Lewis: Nomads and Settlers in Syria and Jordan, p.126; Ochsenwald: Opposition to Political Centralization, P. 302.

(٨٠) جريدة المقتبس، ع ٥٤٤، السنة الثانية، الأربعاء ٧ كانون الأول (ديسمبر ١٩١٠م، ص٢؛ وانظر أيضا جريدة المقتبس، ع ٥٤٥، الخميس ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠م، ص ٢؛ جريدة البشير، ع ١٩٩٣، الجمعة ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠م، ص٢.

(٨١) جريدة المقتبس، ع ٥٤٥، الخميس ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠م، ص٢.



وحاولت إدارة الخط الحديدي الحجازي إتمام نواقص المحطات التي اعتدى عليها البدو حتى محطة جرف الدراويش[٨٢]، وبعد الاطلاع على ما جرى للعاملين في هذه المحطات، وجد أن بعضهم مقتول في محطته، ومن بين هؤلاء طبيب شعبة معان علي بك، حيث بلغ مجموع القتلى من مأموري الخط الحديدي، في هذه الفترة، ستة أشخاص[٨٣]. وقدرت الحكومة العثمانية حجم الأضرار بالخط الحديدي بحوالي (٨٠,٠٠٠) ليرة عثمانية[٨٤].

ولم تغض الدولة العثمانية النظر عن ممارسات البدو السابقة واعتداءاتهم على السكة ومحطاتها، التي كانوا ينفذونها تضامناً مع ثورة الكرك عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ)؛ لذلك كلفت الدولة القائد العام سامي الفاروقي قيادة حملة سميت بالحملة الحورانية، ضد هذه القبائل، لتأمين حركة القطارات؛ فقام رئيس الهيئة الحربية في الحملة صلاح الدين بك بقيادة قوة نحو الكرك، وقوة أخرى بقيادة نورس بك باتجاه أم الرصاص؛ لتأديب القبائل التي هاجمت القوات العثمانية في المحطات الآتية: أم الرصاص، وعمان، والقطرانة، وضبعة[٨٥].

وكانت الحملة الحورانية مؤثرة، حيث استطاع قائد مفرزة التعقيب في أيار (مايو) عام ١٩١١م (جمادى الأولى عام ١٣٢٩هـ)، جمع بعض الأسلحة التي بحوزة البدو؛ إذ كان عددها (٨٨) قطعة سلاح تمّ جمعها من قبيلة بني صخر، وقطعتين من عشيرة العقيل. وتعقب قائد المفرزة عشيرة الخريشة بالقرب من الزرقاء، كما أدبت قواته عشيرتي: زيد والهقيش في أراضي الغليطة ووادي حزيم، حيث

(٨٢) جرف الدراويش "جروف الدراويش": إحدى محطات الخط الحديدي الحجازي، وهي منطقة تقع إلى الشمال من مدينة معان الأردنية، وترتفع عن سطح البحر بحوالي ٩٥٨م. انظر: الدقن، سكة حديد الحجاز الحميدية، ص ٢٠٢.

(٨٣) جريدة البشير، ع ١٩٩٥، الجمعة ٢٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٠م، ص ٢.

(84) Ochsenwald: Opposition to Political Centralization, P. 302.

(٨٥) خليل رفعت الحوارني: "ماذا فعلت الحملة الحوارنية"، جريدة المقتبس، ع ٥٩٠، ٢ شباط (فبراير) ١٩١١م، ص٢.

استردت القوات العثمانية المنهوبات (أسلحة وأدوات تتعلق بالخط الحديدي) من هؤلاء البدو، وألقت القبض على شيوخهم(٨٦).

وانتهت مهمة القوات العثمانية، بعد تأديب قبيلة بني صخر وخاصة عشيرة الخريشة، واستردادها لجميع ما نهبه البدو؛ كما قبضت على بعض شيوخهم، مثل محمد دخيلان، وهزيمة بن حامد من بني صخر، وشيخي قبيلة بني خالد: طالب متعب، وفارس القاضي، وشيخ قبيلة السرحان محمد بن بالي، وسائل بن عبده من عشيرة "النخود"، وجميعهم من القبائل البدوية في منطقة شرقي الأردن، اشتركوا في الهجوم على معان ضد القوات العثمانية؛ لذلك أُدخلوا سجن دمشق، وعادت القوات العثمانية إلى درعا، بعد إنجاز مهمتها السابقة(٨٧).

واستطاعت الدولة العثمانية بعد سلسلة الإجراءات السابقة، إخضاع القبائل البدوية في منطقة شرقي الأردن لنفوذها، خاصة بعد تمكنها من القضاء على ثورة الكرك عام ١٩١٠م (١٣٢٨هـ)؛ لذلك جددت بعض هذه القبائل علاقتها مع الدولة؛ فبنو صخر استمروا يتلقون الصّرة مقابل حماية الحجاج، رغم موقف بعض شيوخهم ومحاربتهم القوات العثمانية في المنطقة، حيث ذكر صاحب الرحلة التنوخية، الذي زار المنطقة في الفترة ما بين ١٩١٤-١٩١٦م (١٣٣٢-١٣٣٤هـ)، أنه حلّ ضيفاً على أحد شيوخ بني صخر شاهر الخريشة ابن عم حديثة الخريشة في عام ١٩١٤م (١٣٣٢هـ)، حيث كان يسكن هو وعشيرته بالقرب من الزرقاء، وأشار إلى أن شاهر الخريشة كان مسافراً إلى دمشق آنذاك؛ بهدف تسلّم الصّرة المخصصة لعشيرته سنوياً من السلطات العثمانية(٨٨).

(٨٦) جريدة المقتبس، ع ٦٨٥، ٢٤ أيار (مايو) ١٩١١م، ص٣.

(٨٧) جريدة المقتبس، ع ٦٨٩-٦٩٠، ٢٩-٣٠ أيار (مايو) ١٩١١م، ص ٢-٣.

(٨٨) عز الدين آل علم الدين التنوخي: الرحلة التنوخية - رحلة عز الدين التنوخي من الزرقاء إلى القريات، جمع وتحقيق: يحيى عبدالرؤوف خير، عمان، ١٩٨٥م، ص ١٥.



وحرصت القبائل البدوية في الحجاز على منع مد الخط الحديدي الحجازي إلى مكة وجدة، وتخريب الخط إن أمكن ذلك. وكان الخط هو العدو الأول لأصحاب الجمال من القبائل؛ فحطموا أجزاء منه تمر بديرتهم ما بين ١٩١٢-١٩١٤م (١٣٣٠-١٣٣٢هـ)[٨٩]؛ وذلك لعدم رضاهم عن هذا الخط الذي قطع مورد رزقهم من الحجاج إلى حد ما، وقد قام شريف مكة بإصلاحه. وازداد التخريب بعد إعلان الثورة العربية عام ١٩١٦م (١٣٣٤هـ)، حيث قامت بتدمير الخط الحديدي، ونسفت أماكن عدة منه، وقد تعطل الخط الذي يبلغ طوله حوالي (١٣٠٣) كيلومترات في عام ١٩١٧م (١٣٣٥هـ)، وأصبح مجرد قضبان حديدية محطمة[٩٠].

الخلاصة:

يتبيّن لنا مما سبق أن القبائل البدوية، التي كانت تسكن بالقرب من طريق الحج الشامي، خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، سواء كانت قبائل شامية أو حجازية، اهتمت بموسم الحج، وأولت القافلة حرصاً كبيراً للاستفادة من مردودها المالي، الذي كان ينعكس على البدو بشكل عام، سواء كان الذي يتقاضونه من مال الصرّة، أو من خلال تأجير الجمال للحجاج وخدمتهم، وبالتالي الحصول على المال مقابل هذه الخدمة، أو عن طريق نهب القافلة في حالات كثيرة كما مرّ معنا، لذلك أصبح البدو وتعاملهم مع القافلة يشكل هاجساً للعثمانيين، الذين تراوحت علاقتهم مع البدو في حالات كثيرة بين مدّ وجزر، والغالب على هذه العلاقة هو البرود، بل أحياناً النزاع ما بين الطرفين، لظروف القبائل البدوية الاقتصادية السيئة.

(٨٩) غرايبة، عرب، ق٢، ص٢.

(٩٠) أحمد عبدالقادر المهندس: سكة حديد الحجاز رحلة في الزمان والمكان، مجلة الدارة، ع ٢، السنة ١٣، ١٤٠٨هـ، ص ٩٢.

لقد أثبتت الدراسة أن الدولة العثمانية كانت حريصة في أغلب الأحيان، على استرضاء القبائل البدوية، والاستفادة من خدماتها أثناء موسم الحج، ولكن عندما كان بعض المسؤولين العثمانيين يمنعون الأموال التي كانت تخصص للقبائل، كان زعماء هذه القبائل يتعرضون لقافلة الحج، وتحدث مواجهات مع العثمانيين، وإن كانت قليلة مقارنة بالفترات السابقة (القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين).

كما أثبتت الدراسة أن مد الخط الحديدي الحجازي بين دمشق والمدينة المنورة قد أثر على وضع القبائل البدوية المادي، لذلك رفضت القبائل مد الخط الحديدي الحجازي، بل قاومته، وشنت هجمات عدة على المحطات والعمال، وحاولت إعاقة العمل ما بين (١٣١٨-١٣٢٦هـ/١٩٠٠ - ١٩٠٨م)، الفترة الزمنية التي استغرقها إنجاز الخط. وهذا ينفي ما ذكره بعض الباحثين(٩١)، من أن القبائل البدوية في جنوب سوريا وشرقي الأردن، التي يمر الخط في أراضيها، لم تسهم في المقاومة، بل اقتصرت المقاومة المسلحة على القبائل المقيمة حول المدينة المنورة التي مدّ في مناطقها الخط. ورغم محاولات المسؤولين العثمانيين التي بذلت من أجل استرضاء زعماء القبائل، إلا أن الاعتداءات استمرت ضد الخط الحديدي ومرافقه؛ لذلك استخدمت الدولة العثمانية القوة مع هذه القبائل، فأدبتها، وعاقبت من تسبب في تخريب الخط الحديدي الحجازي.

(٩١) السعدون: مقاومة القبائل لسكة حديد الحجاز، ص ٥٦-٥٧.